

العزيمية الصحيحة

شفيق جبري

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

أية لغة ، فلا هو من بيان العرب ولا هو من بيان
الفرنسية ، فالذي يؤمن أن المحافظة على لغة العرب
الصحيحة في بعض الصحف ودور الإذاعة وفي بعض
المؤلفات قد ضعف أمرها حتى كاد يضمحل ، وقد
كان أئمة البيان في أوائل هذا القرن وأواخر القرن
الماضي إذا وقعوا على شيء من اللحن نبهوا عليه ،
وقد تطول المناظرات في هذا التنبيه ، ولا ننسى اهتمام
الشيخ ابراهيم اليازجي بتتبع لغة الجرائد ومفانط
الكتاب والشعراء ، ولا ننسى مناظرة الأئمة في هذا
الموضوع ، أمثال الامير شكيب أرسلان ومن هم في
طبقتهم ، أما الآن فقد أطلقت الأقلام اطلاقاً ، فأصحابها
ينحرفون في بعض الاحياء عن اللغة وروحها فلا نجد
من ينبههم على هذا الانحراف ، حتى لو نبهوهم لما بالوا
بهذا التنبيه ، أذكر أن أحد طلاب كلية الآداب في
الجامعة السورية جاني بعد فراغ من انتدريس
واستأذنتني في قراءة قصيدة على من شعره ، فقرأ
القصيدة ولا بأس بشاعريته ، الا أنه جاء في القصيدة
لفظة غير صحيحة فلفت ذهنه اليها فقال : يا أستاذ !
مسألة اللغة بطلت ! وصاحبنا من أصحاب الانشغال ،
فمسألة اللغة لم تبطل في نظر هذا التلميذ وحده
ولكنها بطلت في نظر كثير من الذين يسكنون بالأقلام
فلا يبالون بما تجني أقلامهم على اللغة ، ولو شئت أن
أدون طائفة من هذه الجنائيات لأعوزتني أوراق كثيرة ،
ولست في حاجة الى أن أحلف اني لا أفهم ما يقولون ،
واني لأجزم أن كثيراً من أمثال لا يفهمون ما لم أفهم .
لا ريب في أن العصر الذي نعيش فيه انما هو
عصر الانقلابات والثورات وما شابه ذلك ، ولم تقتصر
هذه الانقلابات والثورات على مذاهب العلم والاقتصاد
والاجتماع والسياسة وحدها ، ولكنها امتدت الى اللغة
نفسها حتى أصبح الذين يهتمون بلغة العرب ويقارون على

كلم « اناتول فرانس » في بعض احاديثه ادبياً عسى
امام الغصه سي برسنة «دي موباسان» وقد احسن في
صاحبه من خصائص منه واسراره ، ولذني لا اشير في
هذا المقام الى ما دلره من قدره ومروته وسير دنت ،
فلا يعني من بل ما ناله الا العبارة التي حتم بها
حديثه ، فقد قال في حانته هذا الحديث :

« أنا ما يتعلق بعنه السيد «دي موباسان» فاني
التقي بان اول ان هذه اللغة انما هي من الفرنسيه
الصحيحة ولست اعرف تناء أجمل من هذا التناء . »

هذه هي العبارة الوحيدة التي حبست عليها الذم
فانتميتها لتلون عنوان المقال ، فقد استغني «اناتول
فرانس» عن الخوص في كل ما يتصل بمحاسن لغة
«دي موباسان» ولخص هذه المحاسن في قوله : لفته
من الفرنسية الصحيحة ، والذين درسوا هذه اللغة
يعرفون ان الفرنسية الصحيحة هي التي تجمع الوضوح
والسهولة والبساطة وما شابه ذلك .

انفصل في هذا المقطع عن هذين الامامين ، واجعل
نصب عيني العبارة التي اقتبستها فاهتم بانعريبه
الصحيحة وبما صارت اليه في هذه الايام ، وما أظن
بي حاجة الى الاسراف في الكشف عن خصائص العربيه
فان هذه الخصائص لا تخفى على الذين قلبوا النظر
سنتين طويلة في القرآن الكريم والحديث الشريف
وخطب الخلفاء الراشدين والخوارج وكلام شيخوخ
الشعر وبلغاء الكتاب الذين اجتمعت لهم اسباب البيان
فملكوا أئنة الكلام فلم يعجزوا عن الافصاح عن شيء
من الافكار بما يناسبه من الالفاظ ولم يخرجوا في هذا
الافصاح عن روح اللغة وعبقريتها .

اذا كان موضوع العربية الصحيحة قد خطر الآن
ببالي فانسبب في هذا ان الذين يقارون على لغة العرب
يمرون في هذا العصر بنمط من البيان لا يعلمون من

عبرية هذه اللغة في نظر كثير من المهوسين موتى او مرضى أو مشوهين ، وهم لا يدرون أن انذى مسات انما هو فهمهم وأن الذى مرض انما هو ذوقهم وأن الذى شاه انما هو أدبهم ، ولست أعلم ولا يعلم غيرى مدى هذا الهوس ، ولما ذا لا أقول : هذا الجنون !

كنت فى بلدة من ولاية « فيرجينية » فى اميركة ، فدخلت عرضا جامعة هذه البلدة وزرت مكتبتها ، فوقعت عينى على كتاب لا يحضرنى اسمه ولا اسم مؤلفه ، ولكننى أذكر أنى وجدت فى بعض صفحاته أن أحد رجال « الكونفرس » قال فى المجلس : انا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين من اللصوص والقتلة وغيرهم ، فلما ذا لا نضع قانونا يعاقب به الذين يفسدون اللغة ويتهاونون بمقدساتها .

هذا قول قيل فى اميركة ، فى البلاد التى يزعمون أنها غرقت فى المادة فلم تكن عنايتها بأمور الفن والادب واللغة على قدر عنايتها بالعامل والمصانع ، فما بال البلاد التى لم يبق لها من ميراثها الضخم فى تاريخها الا اللغة ، ما بال هذه البلاد يرى رجال الامر فيها فساد اللغة ولا يتحركون ، فان أهل الادب لا يستطيعون أن يروا بأعينهم الاستخفاف باللغة ومقدساتها دون أن يساورهم الألم فى هذا الاستخفاف ، ولو تتبعنا تاريخ الامم الادبى لرأينا ان هذا التاريخ ملآن من أسماء الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن اللغة ومناهضة الذين يعبثون بروحها وعبريتها ، ولم يكن اهتمام الامم بلغتها فى القديم أكثر من اهتمامها بها فى الحديث فقد قرأت من أربعين سنة فى بعض الصحف او بعض الكتب أن ناقدا من نقاد ايطالية المشهورين قال : اننى أمر فى هذا العصر بعبارات فأشعر بأن معدتى تنقلب على ، ولا شك فى أن معدته لم تنقلب عليه الا لان تلك العبارات خارجة عن روح اللغة الايطالية .

من بدائه الامور ان اللغة لا تقف عند أفق من الآفاق ، فهى فى حركة مستمرة ، فى انتقال من طور الى طور ، ففي كل عصر تموت ألفاظ وتولد ألفاظ ، فى كل عصر تنتقل ألفاظ من وجه الى وجه . مرة تنتقل من معنى خاص الى معنى عام ، ومرة من معنى عام الى معنى خاص ، فى كل عصر تولد تراكيب لا يعرفها العصر المتقدم ثم

تموت تراكيب كانت تعيش فى القديم ، والشواهد فى هذا البات كثيرة ، فانا لا نفتح معجما من معجمات اللغة الا رأينا ألفاظا ماتت لا يستعملها أحد فى هذه الايام ، ولا نفتح بعض كتب الادب القديمة الا وجدنا تراكيب أو استعمالات لا يأنس بها هذا العصر ، فلا خوف من موت بعض الالفاظ أو بعض التراكيب ولا خوف من ميلاد بعض الالفاظ أو بعض التراكيب ، انما الخوف كل الخوف من خروج اللغة فى هذا الميلاد عن روحها وعبريتها ، الخوف كل الخوف من ميلاد ما لا يألّفه ذوق اللغة ، ان الذين جددوا اللغة فى القديم ، وقد يكون أبو تمام على رأسهم ، قلبوا معاني الالفاظ من وجه الى وجه ، فضيقوها حيناً ووسعوها حيناً وجاءوا بتراكيب حديثة ، الا أنهم لم ينحرفوا فى هذا الامر عن روح اللغة ، فاذا قرأنا شعرهم فانا نقرأ شعرا عربيا لاشعرا أعجميا ، أما أن يترك شأن توليد الالفاظ والتراكيب لجماعة طائشين ، مهوسين ، لا علم لهم باللغة ، ولا احاطة لهم بالادب ، ولا اطلاع لهم على تاريخ هذه اللغة وهذا الادب ، فهذا معناه فساد اللغة وضياعها .

وخلاصة الامر اننى أشعر بان العربية الصحيحة قد ضعفت فى هذا العصر ولا عبرة بفتة من اصحاب القام لم تضعف عربيتهم ولا ضعفت غيرتهم عليها ، انما الخوف من هؤلاء النشء الذين أمسكوا بأقلامهم وأطلقوها فى كل مهيب ، فلا نحن نفهم ما يقولون ، ولا هم يفهمون ما قالوا ، ولا نستطيع أن نقول : لهم فهمهم ولنا فهمنا ، فان اللغة ليست ملكهم وحدهم حتى يعبثوا بها كيف شاءوا ، وانما هى ملك الاممة بحدافيرها ، وعلى الحكومات تقع تبعة الاهتمام بها كما تقع عليها تبعة الاهتمام بالمجرمين ، فهى التى تتولى فى مدارسها تدريب النشء على ذوق اللغة ، هى التى ينفخ أساتيد مدارسها روح اللغة فى روح الطلاب . فانا نخشى ان تنحصر العربية الصحيحة فى طبقة محدودة من أهل الادب وان تشيع فى الطبقات العامة عربية غير مفهومة وفى هذا الامر ما فيه من العواقب غير المحمودة .

شفيق جبرى